فاتحـة الكتاب

الذي ينكر الصلة الواشجة بين حرية الفكر والحرية السياسية والاجتماعية إنما ينكر معلوماً من حقائق العلم والتاريخ بالضرورة؛ ففي ظل سلطان القهر تنتقل العدوى من القمة إلى السفح، وتنتشر خلاياها السرطانية في نسيج الحياة الإنسانية، فتهوي بها في مهاوي العدم. في ظل القهر دائماً تتحد الذات والموضوع، ويصبح النقد لأي فكرة طعنا في صميم الذات المفكرة، وحَطّاً من شأنها، ويرى كل حامل قلم في نفسه ما يعجبه، وينكر على غيره حق ترديد النظر فيما يقول، ولا يتوانى عن عقوبة مرتكبي جريمة نقده ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. وحينئذ تتفاوت العقوبة بتفاوت ما يتسنمه من مناصب أو يحتله من مواقع، وبحسب ما يملك من قدرة على الانتقام، ويصبح جوهر الانتقام واحداً، وإن اختلف مظهره بين انتقام القادرين وانتقام العاجزين.

من ثم لم يكن عجباً أن تزدهر الثقافة في أقطارنا وتبرز أعظم الشخصيات تأثيراً في مسارها بازدهار الحرية السياسية، وأن تشيع السطحية والفراغ في غياب الحركة النقدية التي تتابع في إخلاص جهود أهل العلم، وفي غياب تقبل هؤلاء للنقد برحابة أفق وسعة صدر. وهذا أدواء وبيلة، ما أجدر العقل العربي أن يعافي نفسه من بلائها.

ولقد ضمَّنت هذا الكتاب طائفة من الدراسات النقدية، تفرقت مواطن كتابتها ونشرها ما بين السعودية ومصر والجزائر والسودان والكويت، ولكن

جامعاً يجمعها في الموضوع والغاية؛ ذلك أنها محاولة لاستحياء معلم أصيل من معالم الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة، تلك الثقافة التي تفخر بوفرة تصانيفها في الجدل والمناظرة ومسائل الخلاف في سماحة نادرة، يعبر عنها بعض أئمة العلم فيها بقوله: «**رَأْينا صواب يحتمل الخطأ، ورَأْيُ غيرنا خطأ يحتمل الصواب**». **وكان ذلك كله تحقيقاً للقانون الإلهي الذي يرتبط به ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾** بقضية العمران في الأرض، ويجعل من هذا الدفع المانع للفساد قانوناً يحكم الدين، والفكر، والسياسة. وإذا كانت مسافة الخلاف تبدو غير قابلة للتجاوز أحياناً - وكانت العبارة عنه قد جاءت صريحة تقصد إلى غايتها قصدا لا عوج فيه ولا أمت، بريئة من مَظِنَّة الجمجمة واللجلجة والالتواء - فما كان ذلك مني إلا عن احترام للعقول التي أنتجت ذلك النتاج المتميز المستحق لأن يكون موضوعاً للتأمل، وللعقول الناقدة المتطلعة إلى المعرفة، وهو احترام يوجب علينا - نحن أهل العلم وطلابه - أن نطّرح التزلُّف والرياء، وأن ننبذ إليها في الخلاف العلمي على سواء.

هذا، ولقد جمعت إلى هذه الدراسات مثاقفات وحوارات اقتضاها تعليق على بحث في ندوة، أو ردٌّ على مقال في صحيفة، ونَسَقْتُها بالأصالة على تتابع تواريخها. وسيرى القارئ فيها أطواراً من رؤى وتوجهات علمية سابقة تجاوزتها في حاضر أيامي، ومن هنا كانت أهميتها وخطر دلالاتها بالإضافة لي، وكان في تسجيلها رصد لحركة العقل المتأمل في ظاهرات اللغة والأسلوب، فلعل القارئ واجد فيها أوجهاً من المنفعة، ومحرِّضاً على مزيد من الفحص عن القضايا المشكلة في هذه اللغة الشريفة.

ولقد قصدت بعملي هذا أن يكون حواراً لا مبارزة، وأردت به وجه الحق لا الغلبة. ومعاذ الله أن أدعي لنفسي فضيلة أَتَمَزَّى بها على غيري، فربما كنت أعرف الناس بعيوبي. بيد أن الخلاف في الرأي من طبائع العقول، وبه - لا بغيره - تتّسع الرؤية، ويزكو العلم، وتسفر الحقيقة.

الكويت في غرة جمادي الآخر ١٤٢٤ هـ

الموافق للثلاثين من يوليـة ٢٠٠٣ م

سعد عبدالعزيز مصلوح